لهُ وجود او أثر ثم اخذ هذا النجم يزيد جلاء ووميضاً فيبقى زمناً على هذه الحالة اخيرًا يتوارى عن العيان لانهُ اصبح جرمًا بدون حرارة او تحوَّل الى بخار فاضمحلَّ. ولربما رجع هذا النجم الى لمانهِ الاول وربما أتى ذلك من سرعة الدوران او من اصطدام بجرم آخر. وبين هذه النجوم الحديثة اثنان دُعيا باسم «نوڤا» (Les deux Nova) فنيهما وضع الاب سيدغريفس ابحاثاً ضافية الاذيال وكشف عن مكنون حقيقتهما. ثم انهُ رصد رصداً محكماً النجم الثاني من النسر الواقع وكتب فيهِ مقالات زيَّنها بكثير من الصور الشمسيَّة فأتت كلها مؤيدة لرأيه

﴿ خاتمة ﴾ لم يزل مرصد ستونيهرست منذ انشائهِ يخطو نحو الكمال ويحقق آمال العلماء فيهِ فاصبح الآن من اعظم المعاهد العلميَّة في انكلترة لان ابحاثهُ في مجاري الكهرباء وكنه النجوم اضحت دستوراً للفلكيين. نعم ان شهرة كهذه احرزها لهُ رجال عظام كالآباء پري وسيدغريفس وكورتي حتى ان الحكومة الانكليزيَّة كلَّفتهم مرارًا بمهامّ خطيرة ونظمتهم في سلك محافلها لكنَّ كثيرين من اخوتهم في الرهبانيَّة عضدوهم باشغالهم وآزروهم بكدّ ونصب مع انهم لم يتفرَّغوا لاعمال الرصد فكانوا اساتذة في المدرسة يعلّمون الطبيعيَّات

وقد ساعد على شهرة مرصد ستونيهرست علماء كثيرون أمّوهُ فدرسوا فيهِ ووقفوا على اختراعاتهِ ثم تفرَّقوا في انحاء المعمور وشيَّدوا مراصد وكلَّل النجاح مساعيهم فاصبح مجدهم مجداً للمرصد الذي لقَّنهم العلوم الفلكيَّة

قيمة الحياة

لحضرة الخوري الفاضل عنوئيل فضل

ان كان امرٌ يجب تحويل الانظار اليهِ والاهتمام بهِ والبحث عنهُ فهو بدون ريب حياتنا على الارض. فما هي هذه الحياة التي نقضيها وما الفائدة منها وهل لها معنًى؟ ليس المراد من هذا الفحص ان نعرف فيما اذا كان يوجد تعساء في العالم او سعداء. فكلنا نعلم ان الناس ليسوا من هذا القبيل سواء فمنهم من الحّ عليهم الدهر بكلكلهِ

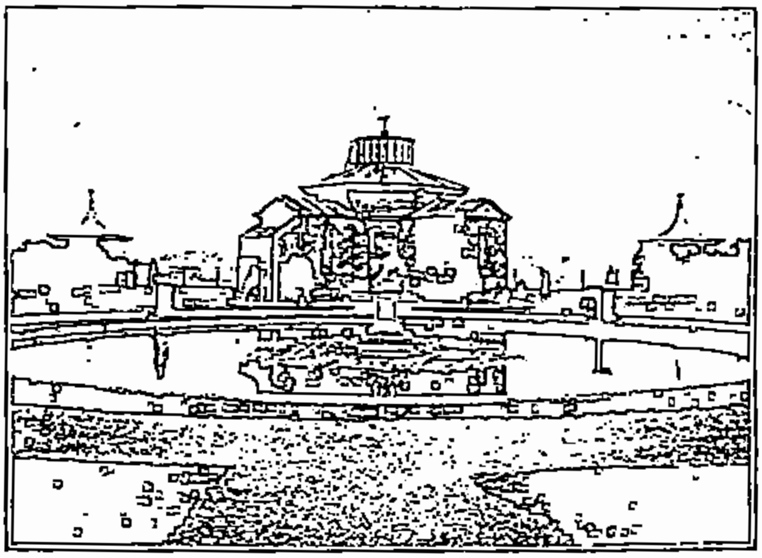

مرصد ستونيرست . بناء لرصد الحوادث الفلكية

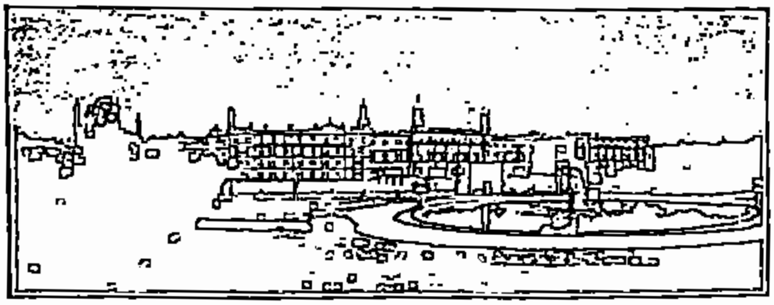

مدرسة ستونيرست

وضربهم بنابه ومنهم من خدمهم السعد وصفا لهم الزمان ولكن هل للحياة ما يجعلها محبوبة رغماً عما تجرّه غالباً وراءها من جحافل الشقاء ؟

شأن الحيــاة عالٍ وقيـتها ثابتة لا تجحف بقدرها ولا تخفف من ثمنها لا الطوارئ ولا تقلّبات الدهر وكوارث الايام وهذا واضحٌ من قولنا : الحياة امر عظيم ومقدّس . لحقيق ان النجاح يرفعها ويهوّنها انما الدينية لا تمتها بل طالما تكسوها رونقاً وتعطيها بهاء وعجداً لا يعطيهـا الفوز والنجاح . غير ان هذا الاعتقاد العمومي باهميّة الحيـاة وخطرهـا مَن يدري انهُ ليس باطلاً . فهل عندنا ما يؤيّدهُ هل من اساس لذلك ام حكمنـا هذا على الحياة يسقط عند الفحص والنقد ويضمحلّ كما يضمحلّ الظلام امام النُور ؟

اجل لا بد من برهان وكل قول ما لم يكن مؤيّداً بالحجج الراهنة فهو غير كافٍ . اننا نرى رجالاً عظاماً كثيرين نكروا اهميّة الحياة واعماوا بصيرتهم واستخدموا اقلامهم لتحقيرها حتّى الكتاب المقدّس قد اثبت بطلانها وحمل الناس على رذلها والزهد فيها . وبرهن القديسـون بافعالهم واقوالهم على عدم اكتراثهم بها

لكنَّ هذا الاحتقـار ما كان الّا جزئيّاً واقعاً فقط على خيرات هذه الدنيا واماً وراء هذه الحياة الزمنيّة فكان يلوح لهم عالم غير قابل الفناء اليه طمحت انظارهم يمحو بجماله وبهائه قباحة الوقت الحاضر

نعم ان الحياة اذا اخذناها بحدّ ذاتها لا تُدلّ على ما قال ابو الطيب:

وإذا الشيخ قال افٍّ فما مـــلَّ حياةً وإنّما الضعفَ ملّا

فهي مع ذلك باطلة وحقيرة ولكن اذا كان نظرنا اليها مقرونا بنظرنا الى الحياة الابدية التي تعقبها فعندئذٍ الافعال الاقل اهميّة والاكثر حدوثاً تُكسى رونقاً جديداً والحياة تصبح فوق كل ثمن . انّما هذا لا يصحّ الّا عند المعتقدين بالله وبالآخرة الذين ابصـار ايمانهم خرقت حجب الطبيعة وفاتت تخوم الزمان والمكان الى عالم الابديّة واللّانهاية . ولكننا نريد ان نعرف هل للحياة قيمة في مذهب الوضعيّين هل لها من اعتبـار عندهم وعلى اي شيءٍ بُني اعتبـارهم . فانهم ينكرون الحق سبحانهُ وتعالى وينفون وجود آخرة يُنصَب فيهـا ميزان العدل ويعقب النور الظلام . اجل للحياة عند الوضعيين معنىً وقيمة وان تكن زمنية بدأتها المهد ونهايتها القبر

وعلى ما يستندون في قولهم وبما جعلوا قيمة هذه الحياة التي هي غالباً مكتنفة بالمصاب وما هو الامر الذي وعدوا به ثواباً للفضيلة ؟

يعلم القرّاء الكرام ان مسألة اهمية الحياة متعلقة كل التعلق بمسألة آداب الحياة اي ان عظمة الانسان قائمة في رضوخه لصوت الحقّ والواجب ومجده الاثيل بانقياده لوحي والهامات نفسه الشريفة القديمة . وهذا لا خلاف فيه بيننا والوضعيّين وقد قال احدهم: « اني وان كنت جحدت اعتقادات صباي فلا ازال اعتبر وافخّم كل ما هو شريف وعالٍ فيها فاليوم كامس التذّ بالرضوخ لصوت الواجب وكامس اعطي افعال الرحمة حقّها وافضّل واوآثر كل فعل نبيل على ما هو دونهُ » . واضاف جورج الير قائلاً : « فمهما طرأ على الاديان وكيف كان مصيرها فالقداسة لا تزال جميلة والخطيئة ممقوتة » . اذاً نتفق مع الوضعيّين ان شرف الحياة وشأنها يقومان بحسن الآداب . انما نسألهم : مَن الآمر بهذه الآداب اذا نفينا الاعتقاد بالله العادل والآخرة وهل من سبيل يؤدي الى حفظها رغماً عما نراه من غرور هذا العالم ؟ فيجيب الوضعيون :

نعم يوجد سبيل الى حفظها ولو زال اعتقادنا بربّ مجازٍ وبآخرة . واولئك الذين يتكرون بان الآداب ترتخي او تسقط بسقوط الاديان فهم ناقصو المرنة وقليلو الاختبار . فلسفة التاريخ ودرس الماضي يُبيّنان لنا على ان هذا الخوف ليس الّا وهميًّا . ولعمري لكل امرئٍ من دهرهِ ما تعوّدا . . . فمن تعوّد على اعتبار الحياة سنداً على اعتقادهِ بخالق ديّان مثيب ومعاقب يظنّ ان قيمتها تزول بزوال اعتقادهِ هكذا غير المجرّب والمحنك من الدهر يظن ان ادنى مصيبة تدمّر البلاد ويهلع عند حلول كل حادث وبليّة .

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم ..

بعكس ذلك من عجم الايام وصارع العناصر وقاس الاهوال فهذا لا يضطرب جنانهُ . وهكذا من يجهل التاريخ ولم يستقرِ العصور الخالية يتكرانهُ اذا تلاشى الدين يتلاشى معهُ كل شيءٍ مجيد وكل امر حسن والحق يقال كم من ديانة قد سقطت قبل باد الكون معها ؟ فالقائلون بها وانصارها على انواعهم وانواعها كانوا يحسبون كما يحسب المؤمنون الآن بانهم يموتون بموتها ويقضى على الآداب من بعدها فماتت ولم يموتوا ولا الآداب

انخفضت عمّا كانت. ولا شيء مستجد فانّ الاعصار تتراجع وتتوارى والماضي يخبر عن الحاضر والحاضر عن المستقبل وما نقوله الان وناضل عنه فقد اقرّ به وعلّمه كثير من الرومان واليونان. هذه خلاصة مزاعم الوضعيّين

وما كل ما يقولونه عارٍ عن الحقيقة لكن ليس كلهُ بحق. اجل صحيح ان الاعصار تتشابه وتتراجع وان الذي كان سيكون وبمعنى اصحّ وارفع تقدر ان تقول: ما لم يكن لا يكون. ان الرجل الشيخ يحفظ كثيرًا من اذواقهِ وحركاتهِ الصبيانيّة وارفاقهُ يقولون عنهُ انهُ لم يزل كما عرفناه وعاشرناه ولم يتغيّر ولكن ما ابعد هذا الرجل كهلًا عن الرجل ذاتهِ صبيًا او فتى فان جئنا نفحص آمالهُ فانهُ كان يبانها على امور باد الآن رسمها من مخيلتهِ واندكت اركانها وان قابلنا بين افكارهِ في الامس وافكارهِ اليوم نجد البون عظيمًا والفرق بيّنًا فالذي كان يلذّ لهُ لم يعد لذيذًا والذي كان عظيمًا اصبح بعينهِ سافلًا. هكذا قل عن الحوادث التاريخيّة فاذا نظرنا الى بعضها بدون تبحّر تظهر لنا متشابهة متوازية غير ان هذه المشابهة ترفع حالما ندقق النظر فيها. وعلى هذا النوع هم الكتبة الاقدمون الذين ظنّهم الوضعيّون اخوانًا لهم فاذا كانت النتيجة بعض الاحيان متقاربة فالمقصود لم يكن واحدًا. هل ان ما ينكرهُ الوضعيّون والماديون اليوم هو ذات ما ينكرهُ الوضعيّون الرومان او اليونان ؟ فالاله الذي كفر به باترون ولوكراس ليس الاله الذي نعبدهُ نحن فالديانة المسيحيّة اعطتنا معرفة كبرى عمّا وراء الطبيعة وافهمتنا طبيعة الذات الصمد وحقيقة النفس واصل الانسان والكائنات واطلعتنا على غايتنا ودلّتنا اجلى دلالة على علاقتنا مع الله. بين ان اللاهوت الوثني ابقى ذلك معتمًا ومختبئًا تحت ضباب كثيف لا يخرقهُ طرف ولا يشقّهُ ايمان ففرق آلهتهم المصطنعة كان سر عظيم وفي كتبهم سكوت بليغ عميق شامل كل ما يجب تحديده. هذا ما عدا الاغلاط الكثيرة والخرافات العديدة التي كان من المستحيل ان لا ينتبه الى وجودها البشر عند بلوغ الافكار اشدّها والمعارف حدّها. وعليهِ نكران القدماء لما فوق الطبيعة ليس كنكران ايّامنا لهُ. فلنأخذ مثلًا لوكراس ونتصفّح كتاباتهِ فهو لا يقرّ بالله ولكن ما هذا الاله بالمنا الحاوي الكل والضابط الكل! او انهُ ينكر وجود بعض آلهة ويقرّ بوجود بعضها ولا نعرف ما السبب بالوقت الذي لو حكم عدلًا كان من الواجب عليهِ ان يكفر بهؤلاء كما كفر باولئك كذلك فانهُ لم يسلّم بخلود النفس ولكنّهُ لم ينكر الابديّة التي ينكرها الوضعيّون

العصريون فالابديّة عند الاقدمين كانت مما يتمخض لها القلب بحيث لم يُعتقد بها إعلاء وإحياء ما بالانسان من عظيم وشريف ولكن استمرار عواطفه وملذاته الحيوانيّة السفليّة

فوالحالة هذه اذا كان الدين قد جفّت حرارتهُ عند عظماء الاقدمين من اليونان والرومان او قام بعض كتبتهم يرشقون بسهام الطعن قسماً من آلهتهم او كلها من غير ان يكون لذلك اقلّ تأثير على آدابهم او حضارتهم فيجب ان نعلم ان هذا الفتور مــا وقع على دين كالدين المسيحي كما وان اولئك الكتبة لم يكفروا بالاله الذي يجب لهُ وحدهُ السجود والعبادة . ثم ان الدين عند اليونان والرومان كان عبارة عن مجموع صلوات هي رقيات وقوانين ورسومات تشمل مجمل الحقوق المختصّة بكل عائلة وقبيلة ومدينة . وقد اصطنعوا معبوداتهم من بعض قدماء ابطالهم ورؤساء قبائلهم او من قوى الطبيعة وخصائص هذه الآلهة وصفاتها هي مناقضة كل المناقضة لخصائص وصفات الهنا المعبود الحقيقي . فلم يكن ليخطر قطّ على بالهم الإله الواحد مُبدع الكل بل كل إله من الهتهم كان مخصصاً بدائرة ومنطقة صغيرة محدودة فبعضهم كان يملك على عائلة وبعضهم على قبيلة وبعضهم على مدينة والى ما سوى هذه العائلة او المدينة لم تمتدّ سلطتهم وكلّ إله كانت لهُ طقوس خصوصيَّة وخدمة خصوصيون وكل مدينة او قبيلة كانت ترجو خلاصها من الإله المكرّم عندها . كذلك العبادة الحقيقيّة كما يُفهم بها اليوم والسجود الادبي الروحي لم يكونا معروفين عند القدماء . فالعبادة كانت قائمة باطعام الاله واهدائه كل ما يروق لحواسه كاللحوم والقطائف والخمر والاطياب والاكسية والحليّ والجواهر والراقص والاناشيد كل هذه كانوا يقدمونها لآلهتهم بدل المساعدة والمعونة المنتظرة منهم وكانوا يعتقدون الآلهة مشاركين لهم في كل حال في النصر والفشل والاسر والغنيمة . فهذه كانت تصوّرات الاقدمين بآلهتهم وبناء على هذه الاعتقادات السخيفة الباطلة فلا عجب ان تلاشت ديانة الاقدمين وجحدها بنوها غير الغافلين ولم يردّهم مع ذلك شيء عن بلوغ ما بلغوا من التقدّم والمجد اما شتان ما بين ايماننا وايمانهم واذا كان الكفر بالدين الروماني اليوناني لا يجحف بالآداب وبصلاح الانسانية فليس كذلك الكفر بايماننا لانهُ اسّ الآداب وركنها . وقد بيّن هذا الفرق احسن تبيان احد كتبتنا المبرزين فقال : « ليس فقط عاطفة الدين انتعشت بالبشارة الانجيليّة لكنهــا اكتسبت معنى ارفع واسمى فبعد ان كان الناس من قبل يصطنعون آلهتهم على مثال النفس الشريفة ويؤلّهون

القوى الطبيعيّة فقد بدأوا باعتبار الله اجنبيًا عن الانسان والكون في جوهره وذاته . فوُضع اللاهوت موضعهُ اي خارج الطبيعة وفوق الطبيعة وفيما كان كل انسان يتخذ لهُ الهًا كما يشاء الى ان عُدّت الآلهة بقدر العيال والمدن ظهر الله او اتّنذر بصورة الكائن الوحيد الحاوي الكل وربّ الكل محيي العالم بقدرتهِ الجدير وحدهُ بعبادة الانسان وسجوده . وعوضًا ان تكون الديانة كما كانت عند شعوب اليونان وايطاليا مجموع ممارسات ربّ يردّدونها من غير ان يدركوا لها معنًى وتقاليد مسأمة من جيل الى جيل حرمتُها فقط قدميّتها فعوضًا عن كل ذلك اصبحت الديانة مجموع عقائد وكثير موضوع لايمانتا فلم تعد ثمّ خارجيّة بل جعلت مركزها الاوّلي عقل الانسان ولم تعد مادة بل اصبحت روحًا فالنصرانيّة غيّرت طبيعة السجود وهيأتهُ والمرء لم يعد يقدّم للاله الأكل والمشرب والصلاة لم تعد رقية بل اضحت فعل ايمان وطلبة متخشعة . كذلك النفس بدّلت علاقتها مع الله وحلّ حبّ الله موضع الرعب من الآلهة . وقد احدثت النصرانيّة اشياء اخر جديدة فلم تنحصر بعائلة دون اخرى ولم تختصّ بأمة واحدة او بمدينة واحدة ولم تتقيّد بفئة او طبقة من الناس لا بل من اوّل نشأتها دعت اليها كل البشريّة فقال المسيح لتلاميذهِ : « اذهبوا وعلّموا كل الشعوب »

فليُعرض الوضعيّون اذًا عن الاتكال على الاقدمين وليكونوا على ثقة ان اليونان والرومان لا يعرفونهم اخوانًا لهم ولا هم ناكرون ما يُنكرونهُ . فلا نزال على ما كنّا عليهِ من الشكّ بصحّة دعواهم ونطلب ثانية اسناد مذهبهم وبيان ما عليهِ يطلقون ذات الآداب

الوضعيّون هم اولئك الناكرون الكل ما هو مطلق فالعقل البشري بمذهبهم هو جدير بالوصول فقط الى الحقائق الوضعيّة الواقعة تحت الاختبار ولكنّهُ يستحيل عليهِ حلّ المسائل غير القابلة للتحقيقات العمليّة الوضعيّة فمن ثمّ كانت مسائل ما فوق الطبيعة بعرفهم او غير موجودة او اذا وُجدت فهي لا تقدر ان تكون ابدًا موضوعًا للعلم لانهُ غير ممكن ان تقع تحت الحس كمسألة الجوهر والعلّة والنفس والله عزّ وجلّ وهلمّ جرًّا . فلا تُحادث الوضعيّين بهذه المسائل فانّهم يرفضونها رفضًا تامًّا

امّا المبدأ الذي يخوّلهم نفي هذه الامور فانهُ على زعمهم مستفاد من تاريخ ارتقاء العلوم ومستند على ما يسمّيهِ الفيلسوف «كونت» امام الوضعيّين بناموس الحالات

الثلاث. فهذا الناموس يدلّنا على ان عقل الانسان جاز متابعةً بطريق نموّهِ وتقدّمهِ ثلاثة اطوار. « اوّلا الحالة اللاهوتيّة حيث كان العقل يشرح وقوع الحوادث والامور بوجود مشيئات علويّة مشابهة لمشيئة ذاتيّتنا الخصوصيّة وهي كل ما استنبطتهُ الاديان من الآلهة في كل فجّ وعند كل امّة. وثانيًا حالة ما وراء الطبيعة او التي كان العقل بها يفسّر الحوادث باسنادها الى قوى او علل خفيّة مفترضة قائمة فيا وراء هذه الحوادث وهذه هي الفلسفة العقليّة. وثالثًا الحالة الوضعيّة او تلك التي يعلّل بها العقل عمّا يجري ويقع بنواميس محقّقة وضعيًا وثابتة تجريبيًا وعمليًا. فالعلوم كلها قبل ان تألّفت وتنظّمت مرّت بالحالة الاولى والثانية ولكنّها لم تنل شأوها وتستتبّ الّا فيا بلغت الحالة الثالثة. فلنأخذ مثلًا الرعد فالاقدمون كانوا اذا سمعوه قصفه يعزونهُ لقوّة الآلهة ثم شرحوهُ بالكهربائيّة وامّا اليوم فيعلّلون عنهُ بناموس التقاء واحتكاك غيمتين مختلفتي الكهرباء كما دلّت التجربة وثبت بالامتحان فيظهر اذن من ذلك ان الحالة الاكيدة والمعوّل عليها علميًا هي الحالة الثالثة او الحالة الوضعيّة التي استقرّ عندها العقل »

لسنا ننكر ما بهذا الناموس من صائب النظر والمهارة في شرح ما تولّى من تاريخ العلوم ولحقيقي ايضًا كون العلوم الطبيعيّة لم تتكامل هيئتها الّا لمّا استقلّت بذاتها أنّما اذا كان هذا الاستقلال علّمنا مآخذ جديدة وافادنا انساقًا للبحث والتنقيب لم تكن من قبل معروفة لا نرى انهُ يُلغي النسق القديم ومباحثهُ الجاوبة على مطاليب لنا حقيقيّة وامّا العلوم الوضعيّة او الطبيعيّة فانها تجيب على سؤال واحد من الاسئلة الكثيرة التي يطرحها العقل اي على كيفيّة حلول الحادث فقط امّا على علّة حلولهِ فلا تقول شيئًا ولكن معرفة العلّة والغاية تهمّ كثيرًا العقل وطالما لا يكشف لهُ عنهما فهو معذّب. اذن ما الحالة اللاهوتيّة وحالة ما فوق الطبيعة الّا حالتان ملازمتان للعقل والجواب عليهما يقتضي تأليف علمين حقيقيّين مستندَين على مطاليب العقل البشري. وهكذا هذا الناموس المسمّى بناموس الحالات الثلاث ليس الّا شرطًا لتقرير وتأليف العلوم الطبيعيّة والوضعيّة ولا حجّة لنفي العلوم الاخرى علوم ما وراء الطبيعة. ان العلوم الوضعيّة ذاتها تعلّمنا ان نتوصّل مما هو عرضي الى ما هو جوهري ومن النسبي الى المطلق ومن المعلول الى العلّة. وعلى مثال فلسفة ما فوق الطبيعة فانّها تبحث عن المجرّدات. وبما ترى أما اللون والمدى

بتجريدات نظرية وعقلية ومع ذلك فالهندسة وعلم النظر يبحثان عنهما وهما من مواضيعهما . غير اننا لا نكتفي بالرد على مبدإ الوضعيين بل قصدنا ان نسبقهم في آرائهم ومزاعمهم الاجتماعية والخلقية ونبيّن فسادها وضعف اسنادها وتدينهم اذا امكننا من فهم

قاعدة الآداب عند الوضعيين وسابقهم

يقول الوضعيون انَّ قاعدة الآداب التي عليها يجب ان يكون مدار افعالنا هو خير الهيئة الاجتماعية او الخير العام . قال احدهم : « ان الهيئة الاجتماعية هي مركب عظيم وكما ان خير كل المركب هو الباعث لكل ما تحدثهُ اجزاؤهُ من الحركات كذلك ان الباعث لافعال كل فرد من البشر يجب ان يكون خير الهيئة الاجتماعية »

وعليهِ من مطابقة افعالنا او مخالفتها للخير العام نحكم بصلاحها او شرها وقد صرَّح بذلك احد مشاهيرهم قائلًا : « ان مسألة الاطلاع على فعل عضو ما بجمعيَّة فيما اذا كان مسعفًا على سعادة القوم ام لا هي مسألة طبيعيَّة ومن نطاق العلم . فاذا ما دلّنا الامتحان والملاحظة على ان السرقة مثلًا او القتل او الزناء لا تمسّ بشيء سعادة الجمعيَّة فنقدر ان نجزم عندئذٍ من غير التفات الى ما يقولهُ علم آخر او مذهب آخر بكون هذه الامور ليست منافية للآداب الاجتماعية . فمن ثمَّ كانت السعادة اي الغاية الاخيرة لكل فعل ادبي والتي بدونها لا قيمة للحياة نتيجة الاجتهاد والاعتناء على جعل افعالنا ان تكون دائمًا مطابقة للقاعدة المذكورة » وهذا ينتج ايضًا من قول هيكلي : « ان الانسانيَّة السعيدة تمامًا هي تلك التي بلغت قوى افرادها لتلك الدرجة من التقدّم والارتقاء بان اصبحت كافية وقديرة على كبح كل الاميال المضرَّة بالخير العام خير البشريَّة » . فاذن علم الآداب والاخلاق الحقيقي هو العلم الكاشف عن الحوادث والافعال الاجتماعيَّة والخلقيَّة وهو يقوم بمجموع نواميس وشرائع ادبيَّة ناهية عن افعال وآمرة بافعال ادبية او غير ادبية تصلح للاستحصال على خير اللفيف الذي بهِ نوال السعادة وتزايدها

(لها بقيَّة)